دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الضغط السكاني وأثره على التحول العمراني والمعماري بالمدينة العتيقة لتطوان
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة عبد الملك السعدي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
المؤلف الرئيسي:	أزكاغ، عبداللطيف
المجلد/العدد:	ع16
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الصفحات:	217 - 258
رقم MD:	573125
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, HumanIndex
مواضيع:	السياسة الإقتصادية ، الكثافة السكانية ، التخطيط العمراني ، المغرب، تطوان
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/573125

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الضغط السكاني وأثره على التحول العمراني والمعماري بالمدينة العتيقة لتطوان (•)

عبد اللطيف أزكاغ

كلية الآداب، تطوان

تتعرض المدينة العتيقة لتطوان، على غرار جل المدن العتيقة بالمغرب، وخاصة الموجودة بالحواضر الكبرى، لتحولات عميقة وشاملة تهم مختلف مكونات هذا المجال الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والعمرانية والمعمارية ... ومما لاشك فيه أن هذه التحولات انطلقت في فترة الحماية الإسبانية على شمال المغرب، حينما أصبحت مدينة تطوان مقرا للمفوضية العليا الإسبانية وعاصمة "المنطقة الخليفية"، غير أن نطاقها اتسع وازداد حدة بعد حصول البلاد على الاستقلال.

وعلى الرغم من وقوف عوامل كثيرة ومتداخلة وراء هذه التحولات، كالوضع العقاري للإطار المبني وشكل البناء وغزو أنشطة الاقتصاد العصري وتبدل العادات الاجتماعية ...، فإن الضغط السكاني الكبير الذي تعرض له هذا المجال يعتبر العامل الحاسم والأشد تأثيرا. فقد توافد على هذا المجال، على مدى عقود من الزمن، آلاف السكان معظمهم من النازحين القرويين قدموا إليها من جبال الريف على وجه التحديد. وتزامن ذلك مع هجرة مضادة للسكان "الأصليين" للمدينة العتيقة في اتجاه الأحياء الجديدة .

وقد ساهم هذا الضغط السكاني الكبير الذي تحملته المدينة العتيقة لتطوان وتبدل تركيبتها الديموغرافية بشكل مباشر، إلى جانب عوامل أخرى بالطبع، في تحول ملموس وخطير لإطارها العمراني

(•)موضوع هذا المقال تمت المشاركة به كمداخلة في ندوة : "المدن العتيقة في المغرب بين الثابت والمتغير"، والتي احتضنتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش يومي ١٦ و ١٧ يونيو ٢٠٠٦.

والمعماري. ومن أبرز مظاهر هذا التدهور التغير الجذري لبنية السكن ومعالمه وخصائصه الأصلية باستعمال مواد البناء العصرية، وإدخال التعديلات على تصميم المسكن، وتعمير المجالات الشاغرة بأشكال جديدة للسكن كالبناء غير القانوني. ولا يقتصر التحول على السكن فقط بل ويشمل أيضا مكونات عمرانية أخرى كالأسوار والأبواب والساحات والشوارع وكل ما يرمز إلى ماضي هذه المدينة.

١. ظروف وعوامل الضغط السكاني على المدينة العتيقة لتطوان

تعرضت المدينة العتيقة لتطوان خلال القرن العشرين لعدة أحداث هيأت الظروف المناسبة لتحولات عميقة وشاملة لبنياتها العمرانية والمعمارية والاقتصادية والاجتماعية ... فقد خضعت المدينة منذ سنة ١٩١٣، ولمدة تزيد عن أربعة عقود، للاحتلال الإسباني الذي كرس مفاهيم وأسس جديدة في مجال العمران والاقتصاد ونمط الحياة بشكل عام. إلا أن حدث الاستقلال يظل بلا منازع البداية الحقيقية لما ستشهده هذه المدينة من تحولات.

١-١- شكل دخول الاستعمار الإسباني المقدمة للتحولات العمرانية والمعمارية للمدينة العتيقة لتطوان

حسب المؤرخ الإسباني TRUJILLO GUTIRREZ Emilio، بلغ عدد سكان مدينة تطوان سنة 1913 (تاريخ احتلال المدينة من طرف الإسبان) حوالي ١٥٠٠٠ نسمة [١]. ووفق التعداد السكاني الذي أجرته الإدارة الاستعمارية الإسبانية في ٣٠ نونبر ١٩١٣ بلغ هذا العدد ١٨٥١٩ نسمة، موزعين بين ١١٢٦٣ نسمة من المسلمين و ٤٢٥٠ من اليهود و ٣٠٠٦ من الأجانب، جلهم من الإسبان [٢]. وقد

(1)TRUJILLO GUTIRREZ Emilio, 1943, Evolución y desarrollo futuro de la población de Tetuán.

(2)PRES1DENSIA DEL GOBIERNO, 1946, Anuario Estadístico, Instituto Nacional de Estadística-Madrid

استقر معظم الوافدين الإسبان بالمدينة التي كانت لا زالت محصورة داخل الأسوار (أي ما يعرف اليوم بالمدينة العتيقة)، وخاصة بحي الملاح. واستمر استقرار هؤلاء داخل الأسوار طوال العقد الثاني من القرن العشرين، حيث أسسوا حيا جديدا لهم بمحاذاة الملاح (Luneta– الهلال الصغير)، لإيواء أفراد الجيش على الخصوص، وهو الحي المعروف اليوم بالمصلى. وبني هذا الحي بطابع عمراني ومعماري فريد يحمل تأثيرات واضحة للمعمار الإسباني (صورة ١)، أما شكله المورفولوجي فقد اتخذ شكل نصف هلال يدير ظهره لأحياء المدينة العتيقة وينفتح على الأسوار الخارجية وتتوسطه كنيسة [١].

الصورة ١: عمارة سكنية بحي المصلى بالمدينة العتيقة لتطوان، يعود بناؤها إلى السنوات الأولى لفترة الاستعمار الإسباني. طراز معماري حديث: شرفات ذات سياج حديدي، نوافذ واسعة، مدخل مشترك، وغيرها من المواصفات المعمارية الدخيلة والغريبة على خصوصيات البناء والعمران المحلية السائدة وقتئذ (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٠٧ مايو ٢٠٠٨.

لا شك إذن في أن مجيء الاستعمار كان المقدمة للتحول العمراني والمعماري للمدينة العتيقة لتطوان . إذ لم يقتصر البناء على حي المصلى بل شيد الإسبان داخلها مقر المفوضية العليا الإسبانية لمنطقة الحماية وإقامة المندوب الإسباني ومحكمة وقاموا بتهيئة ساحة الفدان وأطلقوا عليها "ساحة إسبانيا"...

(1)DELLERO (Karim), 1985. Essai de présentation de la production urbaine du protectorat Espagnol «Tétouan », Mémoire du diplóme d'Architecte, I.S.A.E, La Combre. Bruxellcs.

انطلاقا من سنة ١٩١٧، شرع الإسبان في بناء حيهم الجديد (الحي العصري) خارج الأسوار، لكن بتخطيط يجعله متصلا جغرافيا بالمدينة العتيقة وكامتداد لها. وهذا يعني أن الإسبان سوف لن ينصرف اهتمامهم نهائيا عن المدينة العتيقة، بل ظل تأثيرهم متواصل في مختلف الميادين. فتواجدهم طيلة أربعة عقود بهذه المدينة كان سببا كافيا لتفكك بنياتها الاقتصادية بسبب تدهور قطاع الحرف الذي كان يشكل ركيزتها الاقتصادية. كما أحدثوا شرخا عميقا في تنظيمها المجالي القائم على مبدأ التخصص الوظيفي والتجانس الاجتماعي ...

١-٢- سمح خروج الإسبان بتروح العديد من الأسر عن المدينة العتيقة

يرى بعض الباحثين بأن المدن المغربية العتيقة، خاصة الحواضر الكبرى، "سجلت مع بداية الاستقلال صدمة جديدة كان سببها هذه المرة النزوح القوي والمفاجئ لجزء هام من ساكنتها الأكثر نفوذا. ويتعلق الأمر من جهة بالأسر الميسورة الذين خرجوا للاستقرار بالمساكن التي تركها الأوربيون في الأحياء الجديدة خارج الأسوار " Quartiers extra-muros"، ومن جهة أخرى بهجرة الجالية اليهودية" [١]. وبالنسبة لتطوان، فقد كانت هجرة اليهود بشكل جماعي إلى خارج المغرب منذ احتلال فلسطين سببا لتراجع عددهم بشكل كبير، حيث تراجع عددهم الإجمالي بمدينة تطوان من ٨٠٥٦ نسمة سنة ١٩٤٠ إلى بضع عشرات في الثمانينيات. وسمح خروج آلاف الإسبان من المدينة بعد إلغاء معاهدة الحماية سنة ١٩٥٦ بإفراغ تدريجي للمدينة العتيقة من غالبية أسرها الميسورة والمؤثرة للاستقرار بالمدينة الجديدة التي بناها الإسبان، وخاصة الحي العصري الذي أفرغ هو الآخر بعد مغادرة الإسبان له في اتجاه بلدهم الأصلي.

([1])BELLEFQUIH (M), FADLOULLAH (A), 1986, Mécanismes et formes de croissance urbaines au Maroc, cas de l'agglomération Rabat-Salé. Librairies El Maarif (3 tomes), cit. p: 147.

وهكذا قدر الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982 عدد الأجانب في مدينة تطوان بما لا يزيد عن 960 نسمة [١]، جلهم من ذوي الجنسية الإسبانية.

وإذا كان الحي العصري قد شكل الوجهة الرئيسية للنازحين من المدينة العتيقة في السنوات الأولى للاستقلال، فإن ظهور أحياء جديدة لاحقا، خاصة في السبعينيات مع ظهور تجزئات الدولة: الطوابل، المحنش الثاني – الشطر الأول، المحنش الثاني –الشطر الثاني ....، سيشجع أسرا أخرى على مغادرة المدينة العتيقة، لاسيما وأنها بدأت تعرف في هذه الأثناء وصول مكثف للنازحين القرويين. فحسب المخطط التوجيهي الأول لمدينة تطوان (١٩٨٤)، فإن أكثر من ثلث الأسر التي شيدت مساكن جديدة لها في مثل هذه الأحياء جاءت من المدينة العتيقة [٢].

وقد نجد تفسير ترك غالبية أسر المدينة العتيقة، خاصة الميسورة، لمساكنها في بداية الاستقلال فيما أصبح يشكله الحي العصري الإسباني بإطاريه العمراني والمعماري العصريين وتخطيطه الجديد من جاذبية للسكان.

فالمساكن مشيدة بطريقة عصرية ومزودة بشبكات عصرية لتوزيع الماء والكهرباء وتصريف المياه، وتستفيد من ظروف مناسبة للتشميس، والشوارع والأزقة عريضة وهندسية تسمح باستعمال العربات ذات المحرك أو السيارات، والتي أصبحت عنوان الغنى والثراء والحياة العصرية. وبشكل عام، فقد بات المركز العصري تجسيدا لنمط جديد للحياة بقيم عصرية دخيلة لم يكن بمقدور المدينة العتيقة بتركيبتها الاجتماعية

(1)Ministère du Plan, Direction de la Statistique, 1983, Population légale du Maroc, d'après le Recensement Général de la Population et de l'Habitat, Septembre 1982 , p 42

(2)Royaume du Maroc, Ministère de l'Habitat et de l'Aménagement du Territoire, DPHAT de Tétouan, études générales et sectorielles. Document 6, "Médina", Rabat, p.4.

وإطارها العمراني والمعماري التقليدي توفيره. لا يفوتنا التأكيد كذلك على أن المضاربة العقارية كانت وراء انتقال بعض أسر المدينة العتيقة نحو المركز العصري، فخروج الإسبان حرر عشرات المساكن سارع الكثير من المغاربة يهودا ومسلمين لتملكها قصد إعادة بيعها أو كرائها.

وعلى كل حال، فقد مكن انتقال العديد من أسر المدينة العتيقة للسكن بالمركز العصري إبان الاستقلال، وفي أحياء جديدة أخرى في وقت لاحق، الوافدون الجدد، ومعظمهم من القرويين النازحين من جبال الريف، الاستقرار بمختلف أحياء المدينة العتيقة، وخاصة بحي الملاح، وهي الظاهرة التي تعرف بظاهرة "الإحلال السكاني "، أي استبدال تلقائي لفئات سكانية بأخرى .

١-٣- توافد قروي قوي ساعد على اشتداد الضغط السكاني على المدينة العتيقة لتطوان بعد الاستقلال

بدأت تيارات المهاجرين تتوافد على المدينة العتيقة لتطوان منذ فرض الحماية الإسبانية، وانتعشت في عقد العشرينيات من القرن الماضي، بعد القضاء على المقاومة في الريف وانتهاء حملة ما سمي "بتهدئة الريف ". ثم أخذت هذه التيارات تحتدم تدريجيا في الثلاثينيات من نفس القرن، خاصة أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، ثم في النصف الأول من الأربعينيات على إثر المجاعة التي ضربت الريف. وبلغت أوجها في نهاية هذا العقد وبداية الخمسينيات بعد أن شرع اليهود في ترك المدينة وإخلائهم لحي الملاح الذي وفر الفرص لمئات الأسر للاستقرار به [١].

(١)تؤكد الإحصاءات المتوفرة وتيرة التوافد هذه. فحسب الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٧١، فإن ١٣,٢% من الأسر استقرت بالمدينة العتيقة لتطوان فيما بين 1920 و1929 ، مقابل ١٩,٥% في فترة ١٩٣٠- ١٩٤٤ و ٢٣,٢% فيما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٤ .

استقر الوافدون في المراحل الأولى من فترة الحماية في الأحياء الهامشية الفقيرة للمدينة العتيقة خاصة بأعالي الطالعة والعيون. وقام العديد منهم ببناء مساكن لهم فوق مجالات فارغة في هذه الأطراف. ذلك أن تماسك النسيج العمراني والتركيب الاجتماعي للمدينة العتيقة وقتئذ لم يكن يسمح بالاستقرار في أحياء أخرى. فالمدينة العتيقة رغم تعرضها لصدمة الاستعمار ظلت أقل انفتاحا. إلا أن انتقال بعض الأسر للإقامة خارج الأسوار، كما سلف ذكره، وإخلاء الملاح من سكانه اليهود في الفترة الأخيرة من الحماية، وفر الفرصة لمئات الأسر المهاجرة للاستقرار بكثافة وبمختلف أحياء هذه المدينة.

لقد شكل حدث الاستقلال البداية الحقيقية لتوافد سكاني غير مسبوق على المدينة العتيقة لتطوان بعد أن تهيأت الظروف المناسبة لذلك. فخروج الاستعمار رفع القيود على كافة أشكال تحركات السكان من الأرياف إلى المدن أو داخل الحواضر، وأسهم بالنسبة لمدينة تطوان في إعادة رسم خريطة التوزيع السكاني داخلها ومن أبرز مظاهره مغادرة اليهود للملاح وانتقال العديد من الأسر للاستقرار بالمدينة العصرية. هذه الأحداث ساهمت في توفير عرضا سكنيا لمئات الأسر المهاجرة للاستقرار بمختلف أحياء المدينة العتيقة. وبتتبعنا لوتيرة توافد هؤلاء المهاجرين، من خلال معطيات الإحصاءات العامة للسكان والسكنى، نلاحظ الصعود المفاجئ لمنحنى تيارات المهاجرين في عقد الستينيات .

من جهة أخرى، فإن الغالبية الساحقة من المتوافدين الذين استقروا بالمدينة العتيقة هم مهاجرون قرويون. فحسب إحصاء ١٩٧١، فإن حوالي ٧١% من أرباب الأسر بالمدينة العتيقة ازدادوا خارج مدينة تطوان مقابل ٣٦,٥% من السكان .

ويتوزع هؤلاء (أرباب الأسر) بين المزدادين بوسط قروي بنسبة ٦١% ووسط حضري بنسبة ٨,٨%، بينما ازداد الباقي خارج المغرب [١]. وحسب إحصاء ١٩٨٢، فإن نسبة أرباب الأسر ذوي الأصول القروية بلغت ٥٨,٣%، وتمثل هذه النسبة حوالي ٨٥% من مجموع أرباب الأسر المهاجرين. وتسجل أعلى نسب هؤلاء بأحياء الطالعة والعيون والملاح [٢]. وينحدر هؤلاء القرويون وبنسب عالية جدا من جبال الريف، إذ تشير المعطيات الإحصائية المتوفرة إلى أن أرباب الأسر المنحدرين من هذا الوسط والمقيمين بالمدينة العتيقة بلغت سنة ١٩٨٢، على سبيل المثال، ٩٤,٤% من مجموع أرباب الأسر ذوي الأصول القروية. ويتوافد معظم هؤلاء من القبائل المجاورة والقريبة لمدينة تطوان، خاصة بني سعيد وبني حسان وبني حزمار والحوز.

وعلى كل حال، فقد مكنت هذه التغيرات في التركيبة الديموغرافية للمدينة العتيقة لتطوان، وما واكبها من تحولات على المستوى الاقتصادي والوظيفي، من احتدام شديد "للمضاربات العقارية التي جعلت من هذا المجال بضاعة للتجارة" [٣]، ساعدت على تراجع ثم إلغاء المقومات والأسس التي قام عليها التنظيم الاقتصادي والاجتماعي لهذه المدينة، ومكنت كذلك من تدهور خطير للإطار العمراني والمعماري.

(١)الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٧١، استغلال لاستمارات الأسرة والمسكن، عينة ١٠%.

(٢)الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٨٢، استغلال لاستمارات الأسرة والمسكن، عينة ١٠%.

(٣)العبدلاوي محمد، ١٩٩٠، الدور السوسيو-اقتصادي للأحباس بالمدن المغربية "مثال مدينة تطوان العتيقة"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد ٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. ص ١٥٩-١٧٨ .

٢. أشكال الضغط السكاني على المدينة العتيقة لتطوان

٢-١- ارتفاع هائل لعدد السكان وللكثافة السكانية غداة الاستقلال

توجد صعوبة حقيقية في التعرف على تطور عدد سكان المدينة العتيقة خلال فترة الحماية. فالإحصائيات المتوفرة تقدم تقديرات لساكنة مدينة تطوان بأجمعها خلال هذه الفترة، بما في ذلك المدينة العتيقة. ورغم أن المغرب أجرى أول إحصاء عام رسمي سنة 1960 إلا أن معظم وثائقه أتلفت، و لم يتسن بذلك معرفة عدد سكان المجال المدروس في تلك السنة. وفي سنة ١٩٧١ حدد الإحصاء العام للسكان والسكني ساكنة المدينة العتيقة ب ٣٦٧٨٥ نسمة، وهذا يعني أنه في ظرف أقل من 60 عاما (١٩١٣-١٩٧١) ازدادت هذه الساكنة بأكثر من ١٠٠%، بينما لم يشهد المجال المبني أي توسعات حقيقية. وتشكل بداية السبعينيات الفترة التي بلغت فيها المدينة العتيقة حد التشبع على مستوى التزايد السكاني ليستقر عدد السكان بعد ذلك إلى غاية بداية الثمانينيات حيث ستبدأ وتيرة التراجع ليسجل عدد السكان، حسب الإحصاء العام للسكان والسكني لسنة ١٩٨٢، ما يناهز ٣٦٤٧٩ نسمة [١].

ومن نتائج هذا الضغط السكاني الكبير اشتداد مستوى الاكتظاظ في فترة السبعينيات بحيث بلغ متوسط الكثافة السكانية 760 نسمة/ الهكتار سنة ١٩٧١ و 773 نسمة/ الهكتار سنة ١٩٨٢. بل سجلت هذه الكثافة في بعض الأحياء أرقاما قياسية بلغت 971 نسمة/ هكتار بالطالعة و ١٢٩٥ نسمة/ هكتار بحي الملاح [٢]، وتظل معدلات الكثافة هذه من أعلى المعدلات المسجلة على الصعيد الوطني.

([1])TAAOUMI Mohamed, 2008, Médinas du Maroc: entre un dépeuplement qui s'accélère et une gentrification marginale, in : Les cahiers du plan, n° 20 septembre-octobre 2008. publication Haut Commissariat du Plan, imprimerie **El** Maarif Al Jadida, pp : 4-10

([٢])الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٨٢، استغلال لاستمارات الأسرة والمسكن، عينة ١٠%.

فعلى سبيل المقارنة، بلغ معدل الكثافة السكانية بالمدينة العتيقة لمراكش سنة 1981 حوالي ٦٥٠ نسمة/ الهكتار[١]، مقابل 550 نسمة/الهكتار بالرباط، و ٦٨٢ نسمة /الهكتار بسلا [٢].

٢-٢- تراجع ملحوظ لعدد السكان منذ ثمانينيات القرن الماضي

منذ بداية الثمانينيات من القرن العشرين لم تعد للمدينة العتيقة لتطوان قوة استقطاب وإيواء المزيد من المهاجرين التي كانت لها غداة الاستقلال بعد أن بلغت حد التشبع لتتحول إلى مجال طارد للسكان. فقد سجل الإحصاء العام للسكان والسكني لسنة 1994 تراجع عدد سكان المدينة العتيقة إلى ٣٣٥٥٦ نسمة واستمر هذا التراجع خلال السنوات العشر الموالية لينزل عدد السكان إلى ٢٨٢٧٨ نسمة سنة 2004[٣]. وبذلك تكون المدينة العتيقة قد فقدت ما لا يقل عن ٨٢٠٠ شخص خلال الفترة ما بين ١٩٨٢ و ٢٠٠٤، وليسجل معدل النمو السنوي خلال نفس الفترة ١,٢-%. ولا حاجة للتأكيد على أن ظاهرة التراجع العددي لساكنة المدن العتيقة همت جميع المدن المغربية الأخرى خاصة المدن الكبرى كفاس ومراكش اللتان خسرتا من ساكنتيهما في نفس الفترة ٥٦٥٤٥ شخص و ٤٣٩٧٢ نسمة على التوالي (الجدول الموالي).

([1])PEGURIER J. , 1982," La médina de Marrakech entre son passé et son avenir", in: présent et avenir des médinas. Equipe de recherche associé au CNRS. n° 706. urbanisation au Maghreb. Fascicule de recherche n° 10-11. **Tours,** 1982, pp:73-82.

([2])BELLEFQUIH (M). FADLOULLAH (A). 1986. op.cit.

([3]) TAAOUMI Mohamed. 2008. op.cit. p7..

جدول ١: تطور عدد السكان ومعدلات النمو السنوي لأهم المدن المغربية العتيقة في الفترة ما بين ١٩٨٢ و ٢٠٠٤

	عدد السكان			معدل النمو السنوي
	١٩٨٢	١٩٩٤	٢٠٠٤	٢٠٠٤/١٩٨٢ %
مراكش	٢٢٦٦٠٩	٢١١٦٢٦	١٨٢٦٣٧	-١,٠
فاس	١٧٣٨٠٢	١٤٩٠١٤	١١٧٢٥١	-١,٨
مكناس	٧٩٧١١	٦٨٥٢٦	٤٧١٢٥	-٢,٤
الدار البيضاء	٥٣٥٥٦	٥٣٥٥٦	٤٧٠٦٣	-٠,٦
سلا	٥١٢٩٦	٤٤٤٢٩	٣٤٤١٠	-١,٨
الرباط	٤٠٢١٢	٣٢٩٣٤	٢٦٤٩٩	-١,٩
تطوان	٣٦٤٧٩	٣٣٥٥٦	٢٨٢٧٨	-١,٢
الصويرة	٢٧٦٨٣	٢٢٩١٥	١٦٧١٨	-٢,٣
طنجة	١٨٨٣٩	١٧٠٩٢	١٤١٧٦	-١,٣
تزنيت	١٦٨١٤	٢٠٨١٤	١٩٩٩٤	-٠,٨
شفشاون	١٤٧٢٧	١٥٢٦٧	١٢٣٦٢	-٠,٨
وزان	١٣٧٧٦	١٤٩٠٨	١٤٥٦٥	-٠,٣
المجموع	٧٥٣٤٥٩	٦٨٤٧٣٣	٥٦١٠٧٨	-١,٣

المصدر (بتصرف) :TAAOUMI Mohamed, 2008, op. cit. p7

ويكمن تفسير تراجع عدد سكان المدينة العتيقة لتطوان في هذه الفترة بالأساس في استمرار نزوح بعض الأسر خارج الأسوار، خاصة وأن فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين شهدت كما أسلفنا ظهور العديد من التجزئات السكنية للدولة وللقطاع الخاص بالأحياء الجديدة لمدينة تطوان كان من بين المستفيدين منها بعض أسر المدينة العتيقة. وفي نفس الوقت لم يتم تعويض هؤلاء النازحين بالقادمين من المهاجرين القرويين لأن معظم تيارات هؤلاء استقطبتهم أحياء التعمير غير القانوني التي شهدت في هذه

الفترة انفجارا حقيقيا في الأحياء الهامشية الكبرى كدرسة وسيدي طلحة وسمسة [١]. ومما يؤكد عجز المدينة العتيقة عن الاستقطاب السكاني كذلك وجود عدد كبير من المساكن الفارغة في بعض من أحيائها بلغ عددها سنة ١٩٨٢، على سبيل المثال، ما يناهز ١٢٢ مسكناً في حي البلد و ١٣٦ بالسويقة، أي ما يمثل ٢١,١% و ٢٣,٦% من مجموع مساكن هذين الحيين على التوالي.

لا شك إذن في أن معظم الضغط الديموغرافي الذي وقع على المدينة العتيقة لتطوان بعد الاستقلال تحملته أحياء الملاح والطالعة والسانية والعيون. فالأول أفرغ بالكامل من سكانه اليهود وعمره المهاجرون القرويون، والأحياء الأخرى لم تتوقف عن استقبال هذه التيارات بعد تعمير تدريجي وغير قانوني للمناطق الفارغة والتوسع العمودي لبعض المساكن. وقد ساهم كل هذا في تغيير الوضع العقاري لمساكن هذه الأحياء، حيث أن غالبيتها أصبحت موجهة للكراء : ٧٥% من الأسر بحي العيون و ٦٣,٤% بالطالعة [٢].

([1])AZOUGAGH Abdcllatif, 1999, L'urbanisation clandestine, la forme de croissance urbaine- périphérique dominante à Tétouan, un phénomène récent en pleine extension. In : Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan, n° 9, pp : 177_229.

([٢])الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٨٢، استغلال لاستمارات الأسرة والمسكن، عينة ١٠%.

صورة ٢: الأجزاء العليا لحي السانية – الطالعة الذي ظهر معظمه بعد الاستقلال شمال المدينة العتيقة على مجال ذو انحدار عنيف، ويتميز نسيجه بالتكتل الشديد وتنافر المشهد العمراني والمعماري، وغيرها من خصوصيات البناء غير القانوني. وتظهر في خلفية الصورة على اليسار جزء من الثكنة العسكرية المهجورة التي بناها الإسبان (عدسة عيد اللطيف أزكاغ، ٢٠٠٨/٠٤/٢٧).

٢–٢– تقلص ملموس لظاهرة التساكن "cohabitation "

أدى التزايد السكاني الكبير الذي عرفته المدينة العتيقة لتطوان بسبب تعاظم تيارات المهاجرين إليها في تفاقم العجز السكني بسبب محدودية العرض السكني وتشبع المدينة بالسكان، فاضطرت الكثير من الأسر المهاجرة إلى تقاسم المسكن الواحد. في سنة ١٩٨٢، على سبيل المثال، كانت تعيش 8336 أسرة في ٥٥٨٩ مسكنا أي بمعدل ١,٥ أسرة في المسكن الواحد. ومما يزيد في تفاقم هذه الظاهرة الحجم الكبير للأسر. ففي نفس السنة بلغ متوسط حجم الأسر في مجموع المدينة العتيقة ٤,٥ فرد، ومثلت نسبة الأسر التي تتكون من ٦ أفراد فأكثر ٢٨,٨% من مجموع الأسر، وسجل متوسط عدد الأفراد في كل مسكن ٦,٧ شخص. في نفس السنة وعلى صعيد الأحياء، سجلت أعلى معدلات التساكن بحي الملاح حيث شغلت كل ١٦ أسرة ١٠ مساكن بمعدل ٧,٢ فرد/مسكن، وأدناها بحي المصلى بمعدل ١٣ أسرة في ١٠ مساكن والطرنكات. بمتوسط ٥,٥ فرد/مسكن.

جدول ٢: حجم ظاهرة التساكن بالمدينة العتيقة لتطوان حسب الأحياء سنة ١٩٨٢

	عدد الأسر	عدد المساكن المسكونة فعليا	عدد الأسر/ مسكن	عدد الأفراد/ مسكن
العيون	٢١١٥	١٣٨٢	١,٥٣	٦,٥
الطالعة	٦٧٣	٥٠٠	١,٣٤	٦,٣
الطرنكات	٦٨٢	٥٢٥	١,٢٩	٥,٥

	عدد الأسر	عدد المساكن المسكونة فعليا	عدد الأسر/ مسكن	عدد الأفراد/ مسكن
البلد	١٥٧٣	٩٨٢	١,٦٠	٧,٦
الملاح	١٤٤٢	٨٩٢	١,٦١	٧,٢
السويقة	١٤٠٤	٩٨٧	١,٤٢	٦,٦
المصلى	٢٤٢	١٨٧	١,٢٩	٦,٠
باب السفلي	٢٠٥	١٣٤	١,٥٢	٦,٦
المدينة العتيقة	٨٣٣٦	٥٥٨٩	١,٤٩	٦,٧

المصدر: الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة ١٩٨٢، استغلال لاستمارات الأسرة والمسكن، عينة ١٠%

وفضلاً عن ارتفاع معدلات التساكن هذه فهي تخفي أيضا حقائق أخرى لا تقل خطورة. فمفهوم المسكن هنا ليس هو المفهوم المتعارف عليه والشائع، أي غرف ومرافق، بل قد يكون مجرد غرفة داخل مسكن كبير أو جزء من غرفة. فأمام التوافد السكاني الكبير والطلب المتزايد على السكن، عمد الكثير من مالكي الدور السكنية إلى جعل كل غرفة مسكنا مستقلا تقطنه أسرة كاملة فيصبح مسكن مكون من خمس غرف، مثلا، تقطنه خمس أسر وتشترك هذه الأسر في المرافق وتجهيزات المسكن خاصة المرحاض وعدادات الماء والكهرباء.... وقد رصدت هذه الحالات على الخصوص في أحياء الملاح والعيون والسويقة.

في السنوات الأخيرة، وعلى إثر تراجع عدد سكان المدينة العتيقة، تقلصت ظاهرة التساكن إلى حد كبير. ذلك أن نسبة الأسر التي تعيش في وضعية التساكن بلغت سنة 2004 ما يناهز ٧,٦% فقط وهى من بين أدنى النسب المسجلة على الصعيد الوطني، إذ لا تزال تسجل في معظم المدن العتيقة الرئيسية للبلاد معدلات تساكن عالية جدا بلغت ١٧,٥% في مراكش و ١٦% بالصويرة و ١٤,٧% بفاس (الجدول الموالي).

جدول ٣ : درجة التساكن (عدد الأسر في كل مسكن) في بعض المدن العتيقة الرئيسية للمغرب

سنة ٢٠٠٤

	مسكن بأسرة واحدة	درجة التساكن (عدد الأسر) في كل مسكن				
		أسرتان	٣ أسر	٤ أسر	٥ أسر وأكثر	المجموع
آسفي	٨٠,٣	٩,٩	٥,٠	١,٨	٣,٠	١٩,٧
مراكش	٨٢,٥	١١,٠	٣,٤	١,٥	٧,١	١٧,٥
الصويرة	٨٤,٠	٨,٤	٤,٦	١,٧	١,٣	١٦,٠
فاس	٨٥,٣	٧,٦	٣,٢	١,٩	٢,٠	١٤,٧
مكناس	٨٧,١	٧,٨	٢,٦	١,٣	١,١	١٣,٢
شفشاون	٨٨,٤	٥,٦	٢,٤	١,٨	١,٨	١١,٦
وجدة	٨٩,٣	٧,٧	١,٧	٠,٨	٠,٥	١٠,٧
تطوان	٩٢,٤	٤,٤	١,٦	٠,٨	٠,٨	٧,٦

المصدر (بتصرف):

BENCHEIKH Abderrahim, 2008, « Parc logement des anciennes médinas : état des lieux », in: Les cahiers du plan, n° 20 septembre-octobre 2008, publication Haut Commissariat du Plan, imprimerie El Maarif Al Jadida. Rabat, pp :47-54.

٣. مظاهر التحول العمراني والمعماري بالمدينة العتيقة لتطوان

إن الضغط السكاني الكبير الذي تحملته المدينة العتيقة لتطوان على مدى عدة عقود ساهم بشكل مباشر، إلى جانب عوامل أخرى بالطبع، في تحول ملموس وتدهور خطير لإطارها العمراني والمعماري. ولعل أبرز مظاهر هذا التدهور تغيير جذري لبنية السكن ومعالمه وخصائصه الأصلية وما يرافقه من هشاشة مستوى العيش لشرائح عريضة من السكان. ولا يقتصر التحول أو التدهور على السكن فقط بل

ويشمل أيضا مكونات عمرانية أخرى كالأسوار والأبواب والساحات والشوارع ... وكل ما يرمز إلى الماضي الأصيل لهذه المدينة.

٣-١- تتميز المدينة العتيقة لتطوان بتنوع هام لأشكال السكن "التقليدي"

تحتوي المدينة العتيقة لتطوان على رصيد سكني غني ومتنوع يعكس موروثا عمرانيا ومعماريا حافلا تشكل على مدى قرون طويلة، يحمل الكثير من تأثيرات المعمار العربي الأندلسي وبصمات الفن المعماري المغربي عامة والمحلي خاصة. وبنوع من التبسيط يمكن تصنيف الأنواع السكنية التقليدية (التي ظهرت قبل الاستقلال) حسب ظروف ظهورها ومظهرها الخارجي ومورفولوجيتها الداخلية والشرائح الاجتماعية التي تأويها والتحولات التي تعرفها إلى الأصناف التالية:

- "الدار المغربية الإسلامية العادية "" Maison marocaine musulmane banale ": وتنتشر بمعظم أرجاء المدينة العتيقة، وهو أقدم نوع سكني بالمدينة العتيقة كانت بداية ظهوره مع توافد الأسر الأندلسية المتوسطة أو الفقيرة. ويتميز بمظهر بسيط ومتواضع خاصة على مستوى الواجهة، فالجدران شبه صماء ومظاهر التزيين الخارجية تكاد تكون منعدمة. أما على المستوى الداخلي فغالبا ما تتوسط الغرف فناء تشرف عليه بنوافذ كبيرة للإضاءة والتهوية.
- الدور الفاخرة و"القصور": ويقتصر وجودها في أماكن محددة في النسيج العمراني للمدينة العتيقة خاصة في حي البلد. وتذكر بعض هذه الدور بمظاهرها المعمارية والعمرانية بقصور الأندلس في عهودها الزاهية. والملاحظ أن معظم هذه الدور- القصور بنيت في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد وصول أسر أندلسية ثرية ومشهورة طردت من إسبانيا كعائلة النقسيس وبريشة والريفي واللبادي.

وآخرها ظهر في القرن التاسع عشر حيث سمح تحويل حي اليهود إلى مكان آخر (موقعه الحالي)، للعديد من الأسر ببناء دور جديدة فاخرة في ذلك المكان بطابع معماري يحمل مؤثرات فاس[١] .

خريطة ٤: صنف الدار المغربية التقليدية بالمدينة العتيقة لتطوان (١٩٩٤)

ويتميز هذا النوع من السكن بكثرة الزخارف وبالعدد الكبير للغرف يتوسطها فناء مفتوح بنافورة تشرف عليه، بواسطة شرفات، غرف الطابق الأعلى أيضا [٢]. وقد حدث تغيير جذري في وظيفة هذه القصور خلال العقود الماضية.

فبعضها أصبح مقرا لإدارات عمومية (المقر الحالي للمقاطعة الحضرية الثانية)، وأخرى تحولت إلى قصور للحفلات (قصر بريشة)، وفئة ثالثة هجرت وتعرضت للخراب.

- الحى اليهودي (الملاح): وظهر منذ بداية القرن التاسع عشر بعد بناء المسجد الأعظم (سنة 1808 ميلادية) وترحيل اليهود المقيمين بجواره. وقد بني هذا الحي بتأثيرات إيبيرية وموريسكية واضحة، إذ صممه مهندس برتغالي فوضع تخطيطا هندسيا بشوارع وأزقة مستقيمة ترسم عند تقاطعها زوايا قائمة.

---

(1)Jean-Louis MIEGE, M'Hammad BENABOUD. Nadia ERZINI, 1996, Tétouan ville andalouse marocaine, kalila wa dimna, Rabat. & CNRS éditions Paris, 111 p.

(٢)من أشهر هذه القصور قصر الباشا أحمد الريفي بالقرب من ساحة "الفدان"، بني في القرن الثامن عشر واكتسب صيتا تاريخيا هاما إذ استقرت به الأسر التي تعاقبت عل حكم تطوان في القرنين ١٨ و ١٩ ثم مقرا للإقامة الخليفية في فترة الحماية الإسبانية.

وتظهر هذه التأثيرات كذلك من الخصائص المعمارية الذي تتخذه المساكن. فالمباني ذات نوافذ وشرفات خارجية كبيرة تزيينها الشبابيك المعدنية والمساكن فسيحة وذات علو كبير، وغيرها من الخاصيات التي تظهر التأثير المعماري الإيبري.

- سكن الحماية الإسبانية بحي "لونيتا"، أي حي المصلى حاليا، ويعكس الفن المعماري الإسباني الحديث، سواء على مستوى المظهر الخارجي أو على مستوى التصميم الداخلي للبنايات. وقد شيد كما أسلفنا في أوائل فترة الاحتلال الإسباني لإيواء بعض موظفي الإدارة العسكرية والمدنية الإسبانية، ويشهد اليوم درجة متقدمة من التدهور خاصة على مستوى الواجهات الخارجية للبنايات (صورة ١).

٣-٢- تتخذ تحولات السكن التقليدي أشكالا متنوعة

تعرضت أشكال السكن التقليدي بالمدينة العتيقة لتطوان على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين لتحولات عميقة همت الجوانب المعمارية والعمرانية للبناء لكن بدرجات متفاوتة وبأشكال مختلفة. ويمكن رصد هذه التحولات على عدة مستويات .

٣-٢-١- استعمال مواد البناء العصرية

إن البناء الأصلي للمدينة العتيقة لتطوان تم في الغالب بمواد هشة كالحجارة المكتلة بالطين بالنسبة للجدران والأخشاب المغطاة بالطين أو القرميد بالنسبة للسقوف. ونتيجة للضغط السكاني الذي تعرض له هذا المجال وقلة أشغال الصيانة والترميم وعوامل المناخ والزمن، فإن هذا البناء يتعرض للتدهور. ومن مظاهر ذلك تآكل الواجهات الخارجية وتصدع الجدران والسقوف إلى درجة أن بعض المباني أصبح آيلا للسقوط. وتلاحظ هذه الحالة بالخصوص بالنسبة للمساكن التي هي في ملك الأحباس أو في وضعية الكراء.

وتسعى العديد من الأسر، المالكة لمساكنها والمكترية على السواء، وبدرجات متفاوتة، إلى صيانة مساكنها باستعمال مواد البناء العصرية بترخيص من السلطات المكلفة بالتعمير أو بدونه. فبالنسبة

للجدران يتم إعادة كساء الجدران بالأسمنت المخلوط بالرمل (البغلي). وفي بعض الأحيان يتم استبدال الجدران الداخلية المبنية بالحجارة بالآجر الأحمر. كما يتم استعمال مواد بناء عصرية أخرى كالرخام الصناعي لكساء الجدران أو لتبليط الأرضية . أما بالنسبة للسقوف، فيتم استبدالها بالضالة (الآجر الأحمر المكتل بالحديد والحصى والأسمنت والرمل).

وحسب الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1994 بلغت نسبة المساكن المبنية بالحجر أو الآجر المكتل بالبغلي حوالي ٧١% ونسبة المساكن المسقوفة بالضالة ٦١%. وتتباين درجة استعمال المواد العصرية في صيانة وترميم المساكن بشكل ملحوظ بين أحياء المدينة العتيقة.

جدول ٤: المواد الأساسية المستعملة في بناء الجدران بالمدينة العتيقة لتطوان سنة 1994 ب %)

مواد البناء	حجر أو آجر مكتل بالبغلي	حجر مكتل بالطين	مواد أخرى هشة	غير مصرح	المجموع
العيون	٥٥,٧	٤٢,٣	٠,٠	٢,٠	١٠٠
الطالعة	٧٩,٢	١٤,٦	٢,٠	٤,٦	١٠٠
الطرنكات	٤٩,٣	٥٠,٧	٠,٠	٠,٠	١٠٠
البلد	٧٤,٥	٢٣,٥	٠,٠	٢,٠	١٠٠
الملاح	٩١,٧	٧,٤	٠,٠	٠,٩	١٠٠
السويقة	٥٧,٠	٤١,٠	١,٠	١,٠	١٠٠
المصلى	٩٣,٨	٣,١	٠,٠	٣,١	١٠٠
باب السفلي	١٠٠	٠	٠	٠	١٠٠
المدينة العتيقة	٧٠,٩	٢٦,٩	٠,٤	١,٨	١٠٠

المصدر: أحناث أحمد والمسال كريم (تحت إشراف عبد اللطيف أزكاغ)، ٢٠٠٠، التحولات المجالية والسوسيو – اقتصادية بالمدينة العتيقة لتطوان، بحث لنيل الإجازة في الآداب، شعبة الجغرافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان .

جدول ٥ : المواد الأساسية المستعملة في بناء السقوف بالمدينة العتيقة لتطوان (سنة ١٩٩٤) ب (%)

مواد البناء / الأحياء	ضالة	خشب قصب وأعشاب مغطاة	خشب قصب وأعشاب غير مغطاة	طولة أو زنك	لوح خشب وقرمود	مواد أخرى	غير مصرح	المجموع
العيون	٤٦,٣	٣٣,٦	٩,٤	٠,٧	٨,٠	٠,٠	٢,٠	١٠٠
الطالعة	٧٧,١	١٤,٦	١,٠	٠,٠	٢,١	١,٠	٤,٢	١٠٠
الطرنكات	٥٠,٨	٣٢,٨	١,٥	٠,٠	١٤,٩	٠,٠	٠,٠	١٠٠
البلد	٥٦,٩	١٨,٩	٥,٢	١,٣	١٥,٧	٠,٠	٢,٠	١٠٠
الملاح	٧٣,١	١٨,٥	٥,٦	٠,٠	٠,٩	٠,٠	١,٩	١٠٠
السويقة	٤٨,٠	٤٢,٠	٦,٠	٠,٠	٢,٠	١,٠	١,٠	١٠٠
المصلى	٩٠,٦	٠,٠	٠,٠	٦,٣	٠,٠	٠,٠	٣,١	١٠٠
باب السفلي	٩٦,٤	٠,٠	٠,٠	٣,٦	٠,٠	٠,٠	٠,٠	١٠٠
المدينة العتيقة	٦١,٠	٢٤,١	٤,٩	٠,٨	٧,٠	٠,٣	١,٩	١٠٠

المصدر : أحناث أحمد والمسال كريم، ٢٠٠٠، مرجع مذكور.

٢-٢- إدخال تعديلات على تصميم المسكن

تستغل بعض الأسر فرصة صيانة وترميم المسكن لإدخال تعديلات وتغييرات ملموسة على التصميم الأصلي للمسكن. ومن الأمثلة على ذلك الزيادة في مساحة المطبخ والحمام ليصبحا قابلين لإقامة بعض التجهيزات العصرية وتوسيع غرفة الاستقبال. إلا أن مثل هذه العمليات محدودة، إذ يتطلب الأمر أن يكون صاحب المسكن مالكا وليس مكتريا، ويتوفر على إمكانات مادية لا بأس بها، والحصول مبدئيا على رخصة قانونية للصيانة والترميم من الجهات المعنية، وهذا ليس بالأمر السهل.

في بعض الأماكن من المدينة العتيقة، خاصة التي تتعرض لضغط سكاني كبير كحي الملاح، يتعرض تصميم المسكن لتعديلات من نوع آخر. ففي الكثير من الدور تصبح كل غرفة مسكنا مستقلا يتم كراؤه للنازحين القرويين الجدد. ونظرا للسقف المرتفع جدا للغرف ببعض هذه الدور لجأت بعض الأسر إلى إقامة سقيفة جديدة واستغلال المجال الأعلى (السدة) كغرف. وتتقاسم الأسر داخل هذه الدار المرافق والتجهيزات الأساسية كالحمام والمطبخ، وتشترك كذلك في عداد الماء وعداد الكهرباء. ويجب التأكيد على أن ظاهرة تقاسم المسكن الواحد من طرف العديد من الأسر تعرفها العديد من المدن المغربية العتيقة الرئيسية. فبالمدينة العتيقة لفاس مثلا "يتم كراء الدور القديمة" البورجوازية" حسب الغرف، وكل غرفة بطولها وعلوها وضيقها يتم تقسيمها إلى أربع غرف ببناء ضالة (سقيفة جديدة بالأسمنت) في منتصف العلو تحت السقف الخشبي لما كان صالونا في السابق، بينما يتم استغلال الأمكنة تحت الأقواس كمطابخ وحمامات أو مكان للجلوس" [١].

٣-٢-٣- تغيير المعالم المعمارية للواجهات الخارجية

يرافق صيانة أو ترميم السكن من الداخل في أغلب الأحيان تحسين المظهر الخارجي للبناية. ويشتمل ذلك على تجديد كساء الجدران وتغيير باب المدخل الخارجي والنوافذ الخارجية، وغيرها ...

وفي أغلب الحالات يؤدي القيام بهذه الأشغال إلى فقدان الواجهة الخارجية للبناء لمعالمه المعمارية الأصلية في غياب مراقبة صارمة من الجهات المسؤولة عن التعمير من جهة، وضعف وعي الأسر التي تقوم بهذه الأشغال بأهمية المحافظة على خصوصيات وأصالة المعمار من جهة ثانية. ومن الأمثلة على ذلك،

([1])NACIRI (M), 1982, "La médina de Fès: trame urbaine en impasses et impasse de la planification urbaine", in: présent et avenir des médinas de Marrakech à Alep. Equipe de recherche associée au CNRS. n° 706. urbanisalion au Maghreb. Fascicule de recherche n° 10 (ترجمة الكتاب) 11, Tours. 1982, pp:237-254

استبدال الباب الخارجي الخشي بباب حديدي وتوسيع أبعاد النوافذ وحمايتها بالشبابيك الحديدية وطلي الجدران بألوان غير متناسقة ... ويكون تغيير المعالم الأصلية للمعمار بشكل جذري وكامل حينما يتم إعادة بناء الدور المهدمة. غير أن بعض الأسر تحاول إضفاء الطابع التقليدي على أشغال الترميم باستعمال مواد بسيطة كالرخام التقليدي والقرميد والنوافذ والأبواب الخشبية ...

٣-٣- ظهور أشكال جديدة للسكن أبرز مظاهر التحول المعماري والمعماري بالمدينة العتيقة لتطوان

ظهرت بالمدينة العتيقة لتطوان، في سياق ما شهدته من ضغط سكاني منذ الاستقلال، أشكال جديدة من السكن لا تمت بأي صلة بالسكن التقليدي الأصيل الذي تنفرد به هذه المدينة كغيرها من المدن الإسلامية. ففي ظل الأزمة السكنية التي شهدتها مدينة تطوان بعد الاستقلال ولعدة عقود متتالية والناجمة عن تزايدها السكاني الهائل، تم تعمير المجالات الفارغة المحدودة ببعض الأحياء ببناء من نمط "الدار المغربية العصرية " والعمارات.

٣-٣-١- السكن غير القانوني

اكتسح السكن غير القانوني، خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كما يظهر من مطابقة تصميمي ١٩٦٠ و ١٩٧٦، الأجزاء العليا لأحياء العيون والطالعة والسانية بجوار قصبة المنظري وأسفل الثكنة التي بناها الإسبان. وهو مجال وعر وشبه معزول يشكل جزءا من سفح درسة و يشرف على المدينة العتيقة بانحدارات عنيفة تبلغ ٣٧%. وقد ساعدت عزلة ووعرة المكان على صعوبة مراقبته وسهل تعميره بطريقة غير قانونية.

صورة ٣: أعالي الطالعة والسانية حيث يهيمن السكن غير القانوني والذي بني على مدى سنوات طويلة منذ ستينيات القرن الماضي، على إثر اشتداد التوافد السكاني على مدينة تطوان (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٢٠٠٨/٠٤/٢٧).

فالسكن المنتشر في هذه الأجزاء هو بالفعل من نوع السكن السري أو غير القانوني إذ تم دون ترخيص قانوني وفي غياب الضوابط القانونية الجاري بها العمل في مجال التعمير. كما يحمل الكثير من خصائص البناء السري الذي ينتشر بمدينة تطوان، سواء على مستوى الشكل المورفولوجي (أزقة منعرجه وضيقة)، أو على مستوى مواد البناء المستعملة (مواد البناء العصرية).

وقد شكل هذا المجال إحدى النقط الرئيسية الخالصة لاستقرار المهاجرين الذين توافدوا على المدينة العتيقة لتطوان بعد الاستقلال. إذ يظهر إحصاء 1982 أن نسبة أرباب الأسر المهاجرة ببعض المناطق الإحصائية التي تغطي هذا المجال قد فاقت ٨٠%، وأن الأغلبية الساحقة منهم صرحت باستقرارها في هذا المجال خلال عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن العشرين.

٣-٢-٣- العمارات العصرية:

ظهر هذا الشكل من البناء بالمدينة العتيقة لتطوان في فترة الاستقلال. ويتمثل على الخصوص في عمارة من الحجم الكبير صممت وبنيت بمعايير معمارية عصرية بشارع "بن حساين "، قرب باب التوت، على أنقاض جزء من السور الذي كان يحيط بالمدينة العتيقة في هذه الناحية. ويستعمل الطابق الأرضي لهذه العمارة كمحلات تجارية بينما تتداخل وظيفة السكن وأنشطة الخدمات في الطوابق العليا.

صورة ٤: شارع بن حساين قرب باب التوت. عمارة بخصائص معمارية ومواد بناء عصرية، إحدى الأشكال العمرانية الدخيلة على المدينة العتيقة لتطوان (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٢٠٠٨/٠٤/٢٧).

٣-٣-٣- السكن الاقتصادي أو الدار المغربية العصرية

وشيد بطريقة قانونية على ما يبدو فوق بعض القطع الفارغة بباب السفلي شمال شرق المدينة. ويشتمل المبنى الواحد في الغالب على طابق أرضي وطابقين علويين مع وجود بعض العمارات الصغيرة (عمارة الاستقلال).

ويختلف الطابع المعماري لهذا البناء كليا عن معمار بناء باقي أحياء المدينة العتيقة. فعلاوة على استعمال مواد البناء العصرية، تعكس واجهات المباني الكثير من ملامح المعمار المغربي العصري كالشرفات

الخارجية والنوافذ ذات الأبعاد الكبيرة. وتتميز الأزقة بتخطيط هندسي واضح مما يسمح بولوج السيارات الخفيفة الخاصة عكس باقي أنحاء المدينة العتيقة.

إن وجود هذه الأنواع السكنية الثلاث داخل أسوار المدينة العتيقة أخل بالتجانس العمراني والمعماري لهذه المدينة والتي حافظت عليه لعدة قرون، وعملت إلى جانب عوامل أخرى سبقت الإشارة إليها على خلخلة مبادئ التنظيم الاقتصادي والاجتماعي لهذا المجال.

٣-٤- مظاهر أخرى للتحولات العمرانية والمعمارية بالمدينة العتيقة لتطوان

٣-٤-١- تحول الساحات والأزقة والأبواب الرئيسية إلى أسواق يومية

تعرف ظاهرة الباعة المتجولون بمدينة تطوان تزايدا مستمرا بسبب احتدام تيارات الهجرة إليها وعجز القطاعات المشغلة التي يمكنها استقطاب هؤلاء كقطاع البناء عن توفيرها لفرص شغل كافية وبشكل دائم. ولكسب القوت اليومي يضطر العديد من السكان والوافدين إلى ممارسة أنشطة متنوعة جلها في إطار القطاع غير المهيكل كالتهريب والتجارة المتجولة.

وتعتبر المدينة العتيقة إحدى المجالات المفضلة للباعة المتجولين لوجودها وسط المدينة بمحاذاة المركز العصري، الذي يعتبر قلبها النابض، ولاعتبارها من طرف الباعة "مجالا آمنا" لا تشمله حملات الملاحقة والطرد التي تمارسها في بعض المناسبات السلطات المحلية في حق الباعة المتجولين والتي تركز على بعض شوارع المركز العصري.

وينتشر هؤلاء في الساحات والأزقة الرئيسية وحول الأبواب حسب نوع البضائع المعروضة. فشارع الوطية وشارع عبد اللطيف المدوري (الطرنكات) وشارع المصدع يغزوها بائعو الخضر والفواكه والسمك، وشارع النيارين تعرض فيه عادة الملابس المستعملة والخردة المستقدمة في أغلبها من سبتة، وساحة الغرسة الكبيرة متخصصة في الملابس والتجهيزات المترلية والمفروشات المستعملة.

صورة ٥: باب التوت، نقطة التماس الرئيسية بين المدينة العتيقة والمركز العصري لمدينة تطوان. تظهر الصورة سيطرة الباعة المتجولون بشكل دائم على الباب ومحيطها وعلى الشوارع المؤدية إليهما (شارع الجزائر وشارع بن حساين)، حيث يعرض أغلبهم مواد غذائية متنوعة (فواكه وخضر، سمك، مواد غذائية معلبة ..) ويسبب ذلك اختناقا كبيرا لحركة المرور. (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، 2008/05/07).

وبينما يفضل الباعة المتجولون بيع الخضر والفواكه والسمك عند باب التوت وحولها، التي تعتبر "نقطة سوداء" دائمة في حركة السير والجولان بالمدينة، نجد في باب النوادر وباب العقلة خليط من السلع المعروضة كالمنسوجات الجاهزة وأواني الفخار والفواكه والطيور الحية ... وتتغير السلع المعروضة للبيع في بعض هذه النقط حسب الأعياد والمواسم الدينية فتنقلب من مواد غذائية إلى ملابس جاهزة إلى أدوات مدرسية إلى أعلاف ...

ومما يزيد في اشتداد حدة الاكتظاظ واختناق حركة السير بالمدينة العتيقة لتطوان لجوء أصحاب المحلات المهنية إلى عرض جزء من بضائعهم على "الأرصفة" خارج المحلات، خاصة في شارع عبد اللطيف المدوري والمصدع وزنقة المقدم .. ولا يتبقى من عرض الشارع المستعمل من طرف الراجلين في كثير من الأحيان إلا بضعة أقدام، وتزيد عربات توزيع البضائع اليدوية التي تجوب هذه الشوارع دون توقف في حدة هذا الاختناق وكثيرا ما تسبب في توقف الحركة تماما.

وبسبب هذا الضغط الذي يمارسه الباعة المتجولون وأصحاب المحلات وموزعي البضائع والمتسوقون على حد سواء، تتعرض الأجزاء المنخفضة للجدران والأرصفة للتآكل والتلف خاصة وأن المواد المستعملة في تبليط أزقة المدينة العتيقة ليست من النوع الذي يمكنه أن يقاوم هذا الضغط اليومي الهائل. ويزيد التلوث الذي تتعرض له هذه الأماكن في حدة هذا التدهور. ذلك أن أجزاء كبيرة من شارعي عبد اللطيف المدوري والمصدع ملوثة بشكل دائم بنفايات الخضر والفواكه الفاسدة وبالمياه المتسربة من صناديق السمك، هذا على الرغم من وجود سوق يومي لبيع السمك تم إعداده بشارع عبد اللطيف المدوري منذ عدة سنوات وشغل لفترة وجيزة قبل أن يغلق أبوابه نهائيا.

٣-٤-٢- اختفاء تدريجي للأسوار

تعتبر الأسوار إحدى المعالم الرئيسية للتعريف بالمدينة الإسلامية وجزء هام من هويتها الحضارية والعمرانية. وبالنسبة للمدينة العتيقة لتطوان فقد فقدت في فترات زمنية مختلفة أجزاء هامة من أسوارها الخارجية. البداية كانت في فترة الاستعمار الإسباني حيث هدمت بعض هذه الأسوار لتنفيذ مخططاته العمرانية كبناء مقر المفوضية العليا الإسبانية وحى لونيتا بالمصلى والمدينة الجديدة التي شرع الإسبان في بنائها إلى الغرب امتدادا للمدينة الموجودة، فشارع محمد الخامس (حاليا) مثلا خططه الإسبان ليكون امتدادا لشارع الحاج أحمد الطريس المعروف بالطرافين. وهكذا، ومنذ الحقبة الاستعمارية، وانطلاقا من باب التوت إلى باب العقلة اختفت هذه الأسوار تماما ولم يبق منها إلا بعض الشواهد. وتحولت إلى واجهات للمحلات التجارية والعمارات كما هو الحال في شارع بن حساين الذي يفصل المدينة العتيقة عن المركز العصري. كما اختفى الجزء الأكبر من الأسوار التي كانت تحيط بالمدينة العتيقة من الجهة الغربية انطلاقا من الثكنة المهجورة وحتى باب النوادر.

وفي الفترة الحديثة، تم هدم جزء من السور الفاصل بين باب التوت وباب النوادر لفتح مدخلا لموقف للسيارات. وقد استحدث هذا الموقف سنة ١٩٨٦ على أنقاض ثانوية القاضي بن العربي للتعليم الأصيل التي تم نقلها إلى مكان آخر بالمركز العصري للمدينة.

صورة ٦: مدخل موقف السيارات الذي تم إحداثه داخل المدينة العتيقة لتطوان (شارع الجزائر) بعد هدم جزء من السور الممتد من باب النوادر إلى باب العقلة الفاصل بين المدينة العتيقة والمركز العصري (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٢٠٠٨/٠٤/٢٧).

في الوقت الحالي فإن الأجزاء المتبقية من الأسوار الخارجية تحيط بشرق المدينة العتيقة وشمالها، من باب العقلة إلى القصبة ومن باب النوادر إلى باب التوت، وحالة هذه الأسوار تختلف من مكان لآخر. فهناك أجزاء أعيد ترميمها كالسور الفاصل بين باب النوادر وباب التوت، والأسوار الممتدة من باب العقلة إلى باب المقابر، والتي مولت ترميمها وزارة الثقافة بتعاون مع جماعة تطوان. غير أنه لا زالت توجد أسوار أخرى في وضعية متدهورة جدا وتعاني الإهمال المطلق مما يؤدي إلى تآكلها بل وانهيار أجزاء منها كما هو الحال بالنسبة للسور المحيط بحي الطالعة شمال المدينة العتيقة.

٣-٤-٣- استفحال مشكلة المباني الآيلة للسقوط

أصبح جزء هام من النسيج العمراني للمدينة العتيقة لتطوان مهددا بالانهيار بسبب تقادم البناء وهشاشته وتآكله وغياب الصيانة بالإضافة إلى عوامل الطقس السيء والكثافة السكانية المرتفعة وما تسببه من ضغط مستمر. فحسب دراسة مشتركة للوكالة الحضرية لتطوان والمندوبية الإقليمية للإسكان وولاية تطوان [١]، فإن عدد البنايات المهددة بالسقوط بالمدينة العتيقة لتطوان بلغ سنة ٢٠٠٥ ما يناهز ١٧٣ بناية تأوي ٣١٢ أسرة. وتتوزع بشكل متباين حسب الأحياء يتركز أغلبها بحيي البلد (المطامر) والعيون. غير أن دراسة حديثة رفعت عدد المساكن المهددة بالانهيار إلى ٢٢٥ مسكنا سنة 2007 وعدد المساكن التي انهارت فعلا ب ١٨ مترلا، مما يؤكد تصاعد وتيرة الانهيارات وتزايد خطورتها، خاصة مع إخطار ما لا يقل عن ٩٠ أسرة بضرورة إفراغ مساكنها [٢].

وقد عرفت السنوات الأخيرة بالفعل عدة أحداث انهيارات المباني السكنية كانت قاتلة في معظمها، مثلما سببه انهيار سقف مترل بدرب الرباحي سنة ٢٠٠٦ [٣]. وشهد شتاء ٢٠١٠ والذي سجل تساقطات مطرية غزيرة ومتواصلة انهيار ثلاث مساكن أخرى في السانية والنيارين وبالقرب من باب الرموز. وهناك تخوف حقيقي من أن تتصاعد وتيرة انهيار المنازل المأهولة مستقبلا في الوقت الذي لم يتم فيه حتى اليوم إعداد برنامج إيواء للأسر المهددة منازلها بالسقوط .

(1) Agence Urbaine de Tétouan, Délégation Provinciale de Tétouan, Wilaya de Tétouan, 2005, Programme d'intervention dans les quartiers sous-équipés et la lutte contre l'habitat insalubre de la ville de Tétouan, Novembre 2005.

(2)Agence Urbaine de Tétouan, 2007. les maisons menacant ruines à la médina de Tétouan, document inédit.

(٣)جريدة "تمودة تطوان"، العدد ١١٩، السنة السادسة ١٥/٠١ دجنبر ٢٠٠٦.

٣-٤-٤- تحول "الفنادق "إلى محلات تجارية أو مهنية وانتشار أنشطة جديدة

تضم المدينة العتيقة لتطوان العديد من الفنادق التقليدية التي كانت تأوي المسافرين والعابرين والتجار بسلعهم ودوابهم. وقد عرفت هذه الفنادق تراجعا لوظيفتها الأصلية لصالح أنشطة أخرى، خاصة الأنشطة التجارية كبيع الألبسة الجاهزة والدجاج الحي... ويوازي ذلك انتشار متزايد لأنشطة جديدة "عصرية" كالصيدليات ومخادع الهاتف ومحلات إصلاح أجهزة الهاتف النقال و "مقاهي" الأنترنت.

٤- الجهود المبذولة لتأهيل المدينة العتيقة لتطوان

يكتسي التدخل لتأهيل المدن العتيقة إحدى أولويات السياسة الحضرية المتبعة في المغرب حاليا. ومرد ذلك إلى ما بلغه النسيج المبني لهذه المدن من تدهور بسبب قدمه من جهة وبسبب ما تعرض له من ضغط سكاني واقتصادي هائل، وبسبب إهماله أيضا ولعقود طويلة من طرف القطاعات المسؤولة عن التعمير. وتعتبر آخر دراسة لتصميم التهيئة للمدينة العتيقة لتطوان أن وضع استراتيجية شاملة لتأهيل المدينة العتيقة ضرورة مستعجلة. إلا أن ما اقترحته هذه الوثيقة من أشغال تهيئة لا تستجيب لقضايا وإشكالات التهيئة الملحة بهذا المجال فهي تنص مثلا على: "تسهيل الموصلية (وصول السيارات إلى الأبواب)، وخلق مواقف للسيارات، وفصل الأسوار عن البنايات الخارجية بخلق طرقات أو مجالات عمومية انتقالية"(١). ولم تقدم إجابات حاسمة حول الإشكاليات الحقيقية لهذا المجال المتمثلة في قدم وتدهور المباني والتي باتت تشكل خطراً حقيقياً على ساكنتها، وفي استمرار وجود كثافات سكانية عالية رغم تراجعها الواضح في العقود الأخيرة. وعلى أي حال، تشهد المدينة العتيقة لتطوان حاليا تنفيذ عدة مشاريع "إعادة التأهيل " بمشاركة عدة أطراف محلية ووطنية وأجنبية نعرض لها في الفقرات التالية.

٤-١- ترميم المساكن الآيلة للسقوط

لمواجهة التداعيات الخطيرة لانهيار جزء من النسيج العمراني للمدينة العتيقة بتطوان، يشتمل برنامج إعادة التأهيل تقوية ما لا يقل عن ٢٤ مترلا وإعادة إسكان حوالي 113 أسرة. وتبلغ تكلفة هذا المشروع ٢٦,٢٣ مليون درهم، موزعة بين ١٥,٨٢ مليون درهم مخصصة لإعادة الإسكان و ٨,٦٨ مليون درهم موجهة لأشغال تقوية ودعم المباني. غير أن هذه المشاريع ما زالت مجرد خطط لم تجد طريقها إلى التطبيق بعد.

صورة ٧: بقايا بناية تهدم طابقها العلوي بحي المصلى، قرب جامع الخضرة، بالمدينة العتيقة لتطوان مودية بحياة أحد المارة. ظاهرة انهيار المباني تكررت في السنوات الأخيرة في عدد من أحياء هذا المجال (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٢٠٠٨/٠٥/٠٧).

([1])Ministère Délégué chargé de l'habitat et de l'urbanisme, Agence Urbaine de Tétouan, 2008, Etude de mise en cohérence des orientations du plan d'aménagement sectoriel de la ville de Tétouan Sidi Al Mandri, Rapport d'analyse- Diagnostic prospectif, 33 pages.

جدول ٦ : المباني الآيلة للسقوط ونوع التدخل لمواجهتها بالمدينة العتيقة حسب الأحياء

	المباني الآيلة للسقوط		نوع التدخل	
	عدد البنايات	عدد الأسر المعنية	تقوية المباني	إعادة إسكان الأسر
الملاح (القدس)	١٠	١٤	٥	١٢
قاع الحافة	١٧	٢٢	١٦	١
السويقة	١	١	١	٠
المطامر	٥٠	٧٩	٤٠	٢٤
الجنوي	١٦	٢٢	٩	١٣
الطرنكات	١٨	٤٦	٥	٣٥
الطالعة	١٨	٤٨	١٥	١٤
السوق الفوقي	٧	٨	٤	٣
العيون	٣٦	٧٢	٢٩	١١
المدينة العتيقة	١٧٣	٣١٢	١٢٤	١١٣

المصدر:

Agence Urbaine de Tétouan, Délégation Provinciale de Tétouan, Wilaya de Tétouan, 2005, Programme d'intervention dans les quartiers sous-équipés et la lutte contre l'habitat insalubre de la ville de Tétouan, Novembre 2005.

٤-٢- ترميم وإصلاح واجهات المباني والشوارع والساحات الرئيسية:

تشمل الأشغال تلبيس الواجهات وطلائها بالجير وصباغة الأبواب وتركيب الواقيات أو الضلالات فوق أبواب المتاجر وصيانة شبكة الإنارة بوضع المصابيح التقليدية وتغليف أسلاك شبكة الكهرباء والهاتف ... ويهم المشروع على الخصوص محاور: الدباغين -العطارين- باب المقابر، ويموله مجلس جهة طنجة - تطوان بتكلفة قدرها ١,٥ مليون درهم، ومحور الخرازين-الصياغين وتكلفته مليون درهم، ويمول الأشغال المجلس الإقليمي لتطوان.

– إعادة الاعتبار للساحات بتمويل من بلدية برشلونة ومنتدى Forum 2004، كساحة "الوسعة" وساحة "تربيعة الكوزة" وساحة "المنظري". وتشمل الأشغال ترميم الواجهات وترصيف الأرضية وصباغة الأبواب والنوافذ وإقامة ضلالات جديدة ومصابيح تقليدية، وكلفة هذه الأشغال حوالي ١١ مليون درهم ...

وستشمل أشغال إعادة تأهيل المدينة العتيقة لتطوان كذلك مشروع تهيئة شارع لونيطا بحي المصلى، خاصة واجهات المباني، وهو ما تم بالفعل، وترميم وإعادة الاعتبار لقاعة المسرح الوطني المهجورة منذ عدة سنوات، وهذا المشروع يوجد قيد الدراسة وبموله الاتحاد الأوربي عبر بلدية مالقا الإسبانية.

وتم مؤخرا ترميم بعض المساجد ذات الأهمية التاريخية كمسجد القصبة وهو أحد أعرق المساجد بالمدينة، ومسجد لوقش العريق والمرافق المرتبطة به الموجود بين زتقة المقدم والغرسة الكبيرة . وتجدر الإشارة هنا، حسب أحد الباحثين، إلى أنه كان هناك مشروعا لترميم مسجد لوقش منذ حوالي عشر سنوات من طرف الحكومة الأندلسية ورصدت له مبلغا يقدر بثلاثة ملايين درهم إلا أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عارضت هذا المشروع [١]. كما تم الانتهاء من تجديد لوحات أسماء الشوارع والدروب والأزقة والساحات، وروعي في إنجازها جانب الأصالة حيت تم تخطيط هذه الأسماء بالخط العربي المغربي العريق على قطع من الرخام الصناعي. وتهم أشغال الترميم كذلك مشروع ترميم وتأهيل أربع سقايات عمومية داخل المدينة العتيقة بإعداد حوضها وتزيينها بالرخام التقليدي، وهذا المشروع لم ينفذ بعد.

(١)ابن عبود امحمد، ٢٠٠٩، تطوان وسياسة التنمية الاقتصادية وتدبير التراث الثقافي، منشورات جمعية تطاون – اسمير، الطبعة الأولى، طبعة طوب – بريس– الرباط، عدد الصفحات ١٤٠ (الإحالة في ص. ٤١).

٤-٣- ترميم الأسوار

يشرف على المشروع ويموله وزارة الثقافة بواسطة مندوبيتها بتطوان، بتكلفة قدرها ٢ مليون درهم. وهكذا تم ترميم وصيانة الشطر الممتد من باب التوت إلى باب النوادر المحاذي للمركز العصري للمدينة، والشطر الثاني يهم السور الممتد من باب العقلة إلى باب المقابر مرورا بباب السعيدة وباب الجياف، وقد تم مؤخراً تنفيذ الأشغال المتعلقة بهذا الشطر كذلك، وتهيئة ساحة تشرف عليها هذه الأسوار قرب باب العقلة حيث تتوقف حافلات السياح الأجانب القادمين من أوربا على وجه الخصوص. غير أنه في أماكن أخرى، لازالت هناك أسوار في وضعية مزرية ولم تحظ بنصيبها من الترميم والصيانة. ويتعلق الأمر بالخصوص بالسور الفاصل بين باب المقابر وقصبة سيدي المنظري شمال المدينة العتيقة، والذي تساقطت أجزاء كاملة منه خاصة بين أعالي حي الطالعة والمقبرة الإسلامية وما تبقى منها مرشحة لأن تلقى نفس المصير (صورة ٨).

صورة ٨: أجزاء من أسوار المدينة العتيقة سويت بالأرض بين حي الطالعة والمقبرة الإسلامية (زنقة المدفع). معظم الحجارة التي بنيت بها هذه الأسوار أتلفت وما تبقى منها اختلط بالنفايات المترلية التي يقذف بها

بالقرب من هذه الأسوار كأحد أبرز مظاهر التهميش الذي يعاني منه هذا المجال (عدسة عبد اللطيف أزكاغ، ٢٠١٠/٠٥/٠٣).

قد تساعد طبيعة مشاريع إعادة تأهيل المنجزة والجهات الممولة (الأوربية) على إغراء الأجانب، خاصة الأوربيين، لاقتناء منازل وقصور هذه المدينة، على غرار ما حدث في العديد من المدن العتيقة المغربية وفي مقدمتها مدينة مراكش. فبهذه المدينة تحول ما لا يقل عن 300 رياض إلى دور للضيافة بيعت جلها للأوربيين، وبخاصة الفرنسيين بنسبة ٥٠% إلى ٦٠% وبذلك "فالرياض" كتراث تاريخي ورمز اجتماعي اختفى من هذه المدينة ..". "فالتهافت الفجائي والسريع للأجانب عليه (الرياض) واستعماله مسكناً لهم أو غالباً استغلاله كمؤسسات للإقامة السياحية، منذ بضع سنوات خلت، أحدث صدمة ثقافية حقيقية على النسيج الحضري" [١].

وفي منطقة سوس، وعلى غرار ما وقع في مراكش والصويرة، فإن مدينتي تارودانت وتيزنيت تعرضتا "لغزو الرأسمال الأجنبي الذي ركز خلال هذه المرحلة على اقتناء المساكن العتيقة ومزارع الزيتون المحيطة بالمدينتين، وتحويلها إلى بنيات للاستقبال السياحي"[٢].

والملفت للنظر أن ظاهرة بيع المنازل للأجانب انتقلت مؤخرا إلى بعض المدن في شمال البلاد. ففي مدينة شفشاون "تشتد المنافسة بين الأسر الشفشاونية بخصوص بيع منازلهم للأجانب بثمن باهظ، ولوحظ

(١)الحلايسي أحمد وبلعربي أحمد، ٢٠٠٦، من الرياض إلى دور الضيافة، أو تأملات في استباحة التراث. مداخلة للباحثين في ندوة : المدن العتيقة في المغرب بين الثابت والمتغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش ١٦-١٧ يونيو ٢٠٠٦.

(٢)هناكا عثمان، ٢٠٠٦،"تارودانت وتزنيت : من حاضرتي سوس التاريخية إلى مدينتين عتيقتين في سوق مزاد العولمة " مداخلة للباحث في ندوة : المدن العتيقة في المغرب بين الثابت والمتغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش ١٦-١٧ يونيو ٢٠٠٦.

اتساع نطاق هذه المنافسة بين مالكي المنازل العتيقة بالمدينة، وخاصة في أحياء السويقة، الهوتة، المدقة، باب السوق، العنصر، والأندلس" [١]. ويشير ذات المصدر إلى أن ما لا يقل عن أربعة عشر منزلا بيعت للأجانب خلال الشهور الأخيرة مع ذكر مفصل لأسماء أصحاب هذه الدور الشفشاونيين والأحياء التي توجد بها. وحسب بلدية شفشاون فإنه وإلى غاية دجنبر 2008 بلغت عدد الرخص الممنوحة لإحداث دور الضيافة بالمدينة العتيقة ٢١ وحدة، يضاف إليها ستة بالمركز العصري. وقد يكون انتقال "العدوى" إلى مدينة تطوان هي مسألة وقت لا غير.

خلاصة

إن الجهود المبذولة لإعادة تأهيل المدينة العتيقة لا يسع إلا تثمينها وتشجيعها.

فهي السبيل لحماية الرموز العمرانية والمعمارية لهذا المجال من التدهور والاندثار، ورد الاعتبار إليه باعتباره جزء أساسيا من الهوية العمرانية والثقافية لبلادنا. لكن نعتقد في المقابل أن التركيز لا يجب أن يقتصر على مشاريع إعادة تأهيل المعالم ذات القيمة الأثرية أو التاريخية والسياحية، وترميم واجهات المباني ببعض الشوارع الرئيسية بهدف تحسين المظهر العمراني الخارجي، بل يجب الانتباه إلى الخطورة المتزايدة الذي بات يشكلها جزء كبير من النسيج المبني القديم والمتهالك على حياة السكان القاطنين بهذا المجال، خاصة

(١)جريدة الشمال، يومية جهوية وطنية، تصدر مؤقتا كل أسبوع، العدد ٣٤٣.

في ظل تكاثر أحداث الانهيارات القاتلة للمباني في المدينة العتيقة لتطوان كما في غيرها من المدن العتيقة المغربية [١].

لذا يجب الانكباب وبشكل عاجل على معالجة الإشكاليات الأساسية لهذه المدن والمتمثلة في تدهور الإطار السكني والتخفيف من الضغط الديموغرافي والاقتصادي الذي تعانيه، سواء بسبب كثافاتها السكانية العالية أو بسبب تحولها إلى أسواق ومجال لممارسة مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية والتجارية، خاصة غير المهيكلة. فالمشكلة الكبرى لهذا المجال تكمن في تقادم النسيج العمراني برمته، وفي مقدمتها المباني السكنية، وبلوغه درجة متقدمة جدا من الهشاشة والتآكل خاصة الجدران المبنية في معظمها من الطين والحجارة والسقوف التي في معظمها من خشب، والبناء كله يعود إلى مئات السنين، وهذا الوضع يشكل تهديداً حقيقياً دائما للسكان. وبناء على ذلك بات من الضروري التفكير عميقا في مستقبل ومصير هذه المدينة، وسائر المدن العتيقة المغربية الأخرى، بشكل يساعد على حفظها من الاندثار، ولكن في نفس الوقت يضمن حماية أرواح آلاف السكان الذى يقطنون ويشتغلون بها والتي يجب أن تكون أولوية الأولويات، فمهما تقادم الحجر لا يمكن أن يكون أغلى ولا أقدس من البشر...

(١)من بين أكثر أحداث انهيار مباني المدن المغربية العتيقة دموية تلك التي سجلتها مدينة مكناس في فبراير 2010 بعد انهيار مئذنة مسجد البردعاين على جموع المصلين وهو الحادث الذي أودى بحياة ٤١ شخصا وجرح حوالي ٧٥ آخرين . كما خلف انهيار منزل بالمدينة العتيقة لفاس في أبريل ٢٠١٠ مقتل أربعة أفراد من أسرة واحدة .

ملخص

شكل التدخل الاستعماري الإسباني المقدمة للتحولات العمرانية والمعمارية التي شهدتها المدينة العتيقة لتطوان طوال القرن العشرين. فقد جاء الإسبان بمفاهيم وحاجيات جديدة في المجال العمراني، كما أحدثوا شرخا عميقا في التنظيم المجالي لهذه المدينة القائم على مبدأ التخصص الوظيفي للأحياء والتجانس الاجتماعي. وكان تواجدهم سببا في تفكك البنيات الاقتصادية للمدينة بسبب تدهور قطاع الحرف الذي كان يشكل ركيزتها الأساسية.

وفي فترة الاستقلال تعرض مجال المدينة العتيقة برمته لضغط سكاني كبير وتبدل جوهري في تركيبته الديموغرافية، أديا إلى تحولات ملموسة وخطيرة لإطاره العمراني والمعماري. ولعل من أبرز مظاهر هذه التحولات التغير الجذري لبنية السكن ومعالمه وخصائصه الأصلية، باستعمال مواد البناء العصرية، وإدخال التعديلات على تصميم المسكن، وتعمير المجالات الشاغرة بأشكال جديدة للسكن كالبناء غير القانوني والعمارات العصرية. ولا يقتصر التحول على السكن فقط، بل و يشمل أيضا مكونات عمرانية أخرى، كالأسوار والأبواب والساحات والشوارع، وغيرها من المآثر التاريخية الأخرى.

المراجع والمصادر المعتمدة

باللغة العربية

- ابن عبود امحمد، ٢٠٠٩، تطوان وسياسة التنمية الاقتصادية وتدبير التراث الثقافي، منشورات جمعية تطاون – اسمير، الطبعة الأولى، طبعة طوب – بريس – الرباط، عدد الصفحات ١٤٠.
- أحناث أحمد والمسال كريم (تحت إشراف عبد اللطيف أزكاغ)، ٢٠٠٠، التحولات المجالية والسوسيو-اقتصادية بالمدينة العتيقة لتطوان، بحث لنيل الإجازة في الآداب، شعبة الجغرافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان .
- الحلايسي أحمد وبلعربي أحمد، ٢٠٠٦، من الرياض إلى دور الضيافة، أو تأملات في استباحة التراث. مداخلة للباحثين في ندوة: المدن العتيقة في المغرب بين الثابت والمتغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش ١٦-١٧ يونيو ٢٠٠٦.
- العبدلاوي محمد،١٩٩٠، الدور السوسيو-اقتصادي للأحباس بالمدن المغربية "مثال مدينة تطوان العتيقة "، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد ٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.ص. ١٥٩-١٧٨.
- هناكا عثمان، ٢٠٠٦، "تارودانت وتزنيت: من حاضرتي سوس التاريخية إلى مدينتين عتيقتين في سوق مزاد العولمة" مداخلة للباحث في ندوة: المدن العتيقة في المغرب بين الثابت والمتغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش ١٦-١٧ يونيو 2006 .

- جريدة الشمال، يومية جهوية وطنية، العدد ٣٤٣.
- جريدة "تمودة تطوان "، العدد ١١٩، السنة السادسة، 15/01 دجنبر ٢٠٠٦.
- استغلال استمارات الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنوات ١٩٧١ و ١٩٨٢، عينة ١٠% من استمارات الأسرة والمسكن.

باللغة الفرنسية

Agencc Urbaine de Tétouan. Délégation Provinciale de Tétouan. Wilaya de Tétouan. 2005, Programme d'intervention dans les quartiers sous-équipés et la lutte contre l'habitat insalubre de la ville de Tétouan. Novembre 2005

Agence Urbaine de Tétouan, 2007, les maisons menacant ruines à la médina de Tétouan, document inédit.

AZOUGAGH Abdellatif. 1999. L'urbanisation clandestine, la forme de croissance urbaine- périphérique dominante à Tétouan. un phénomène récent en pleine extension. In : Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan. n° 9. pp : 177.229.

BELLEFQU1H (M). FADLOULLAH (A). 1986. Mécanismes et formes de croissance urbaines au Maroc, cas de l'agglomération Rabat-Salé. Librairies El Maarif (3 tomes).

BENCHE1KH Abderrahim. 2008, « Parc logement des anciennes médinas : état des lieux ». in : : Les cahiers du plan. n° 20 septembre-octobre 2008. publication Haut Commissariat du Plan, imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, pp :47-54.

DELLERO (Karim). 1985, Essai de présentation de la production urbaine du protectorat Espagnol « Tétouan ». Mémoire du diplôme d'Architecte, l.S.A.E, La Combre. Bruxelles.

3-BELLEFQUIH (M), FADLOULLAH (A), 1986

MIEGE Jean-Louis. M'Hammad BENABOUD. Nadia ERZINI. 1996. Tétouan ville andalouse marocaine, kalila wa dimna. Rabat. & CNRS éditions Paris. 111p.

Ministère Délégué chargé de l'habitat et de l'urbanisme. Agence Urbaine de Tétouan. 2008. Etude de mise en cohérence des orientations du plan d'aménagement sectoriel de la ville de Tétouan Sidi Al Mandri. Rapport d'analyse- Diagnostic prospectif. 33 pages.

Ministère du Plan. Direction de la Statistiquc.1983. Population légale du Maroc, d'après le Recensement Général de la Population et de l'Habitat. Septembre 1982.

NACIR1 (M). 1982, "La médina de Fès. trame urbaine en impasses et impasse de la planification urbaine", in: : présent et avenir des médinas de Marrakech à Alep. Equipe de recherche associé au CNRS, n° 706, urbanisation au Maghreb, Fascicule de recherche n° 10- 11. Tours. 1982. pp:237-254.

PEGURIER J. . 1982." La médina de Marrakech entre son passé et son avenir-, in: présent et avenir des médinas de Marrakech à Alep Equipe de recherche associé au CNRS. N° 706. urbanisation au Maghreb. Fascicule de recherche n° 10-11. Tours. 1982. pp 73-82.

PRESIDENSIA DEL GOBIERNO. 1946, Anuario Estadisüco. lnstituto Nacional de Estadistica- Madrid.

Royaume du Maroc. Ministère de l'Habitat et de l'Aménagement du Territoire. DPHAT. Schéma Directeur d. Aménagement urbain de Tétouan. études générales et sectorielles. Document 6. "Médina", Rabat, p.4.

TAAOUMI Mohamed. 2008, Médinas du Maroc : entre un dépeuplement qui s'accélère et une gentrification marginale, in : Les cahiers du plan. n° 20 septembre-octobre 2008, publication Haut Commissariat du Plan, imprimerie El Maarif Al Jadida. pp : 4-10.

TRUJILLO GUTIRREZ Emilio. 1943. Evoluciôn y desarrollo futuro de la poblaciôn de Tetuân.